الافتتاحية

الرسالة إلى الرومانيّين

وخلفيّة المسيرة من شاول اليهودي إلى بولس المسيحي*

١ - مقدمة

لا شك اليوم يدور حول كاتب الرسالة إلى الرومانيّين؛ فهذا الأخير يدعو نفسه «بولس»، وهو بوضوح الشخص المعروف منذ بداية المسيحيّة على أنّه «الرسول بولس».

هناك بعض الجدل حول تاريخ كتابة الرسالة، وجدل أقلّ حول مكان صدورها. ما يهمّ أكثر من المعطيات المتعلّقة بالتاريخ والمكان، في سبيل فهم الرسالة، هو بالأحرى خلفيّتها ضمن حياة بولس ونشاطه، والمسألة التي يُعالج.

هناك عناصر ثلاثة ذات أهميّة خاصّة، من دونها يبقى الكثير في الرسالة غير واضح أو أيضاً غير قابل للتفسير، هي التالية :

٢ - بولس اليهودي

وُلد بولس وترعرع يهوديّاً. لم ينقطع إطلاقاً عن أن يكون كذلك. هذه النقطة هي أحياناً موضوع جدل، ولكن فقط بسبب جهل الحقيقة. إنّ شهادة بولس الخاصّة حول ذاته (٢ كو ١١: ١٢ - «إسرائيلي، من نسل ابراهيم، من قبيلة بنيامين»؛ أيضاً فيل ٣: ٥) لا يمكن أن توضع جانباً من دون سبب وجيه، علماً أن لا وجود لأسباب من هذا النوع. لا سبب أيضاً للشك في المعلومات التي يعطيها سفر أعمال الرسل، لأنّ بولس ولد بالفعل في طرسوس من أعمال كيليكيا (أع ٢٢: ٣).

ولكن إذا كان الأمر على هذه الحال، فبإمكاننا أن نستخلص أمرين من معطيات أخرى :

أ - نسبه

- عبراني

يدعو بولس نفسه «عبرانيّاً ابنَ عبرانيّ[1]» (فيل ٣: ٥). في إطار الشتات اليهودي الذي ينبغي أن يعني أنّ بولس قد ترعرع على أن يكون واعياً لميراثه كعضو في الأمّة اليهوديّة وفخوراً به. يعطي بولس ذاته سلسلةً من التسميات التي تبرز اهتمامه بأصوله، كما بأمانته لهذه الأخيرة. فهو «عبراني»، و«إسرائيلي»، و«من نسل إبراهيم»[2]

---

* James D. G. Dunn, *Romans 1-8* (Word Biblical Commentary; Word Books, Publisher; Dallas, Texas 1988) XXXIX-XLIV.

١ - تدل كلمة «عبرانيّين» على أولئك الذين كانوا قبلاً يدعون بعضهم «بني إسرائيل» أو «إسرائيليّين» (أنظر ٢ ملك)، في حين أنّ التسمية كانت سابقاً تُستَعمَل من قبل الغرباء للإشارة إلى الإسرائيليّين (رج E. WILL-Cl. ORRIEUX, *loudaismos - Hellenismos*, 1986, p.33, n. 4).

٢ - نصادف كلمة «زرع» أو «نسل إبراهيم» (σπερμα Αβρααμ) هنا، وخمس مرّات في غل (٣: ١٦ و١٩ و٢٩). ونجد عبارة «أبناء إبراهيم» (υιοι Αβρααμ) في غل ٣: ٧. في كلتَي الحالتين، ينبغي الاستنتاج أن هناك ميراثاً مرتبطاً بالنسل وبالبنوة، وبالتالي ليس المقصود الرباط الدّمويّ وحسب، بل الإرث الخيوي الذي مصدره وعود الله لإبراهيم ولبنيه. الخيرات الأسكاتولوجية هي لهؤلاء، ولهم وحدهم. هكذا يُفسَّر العهد القديم. النقطة الحاسمة هي إذا الانتماء إلى عائلة إبراهيم، من خلال الختان وحفظ الشريعة. سيقاوم بولس هذا التفكير، حتّى ولو عبّر هنا عن افتخاره بهذا الانتماء.
يجب الملاحظة أنّه، في الأدب الحكمي وفي التقليد الربّيني، كلمة «ابن» هي لقب يعطى للتلميذ، ويعبّر أيضاً عن بنوة روحيّة.

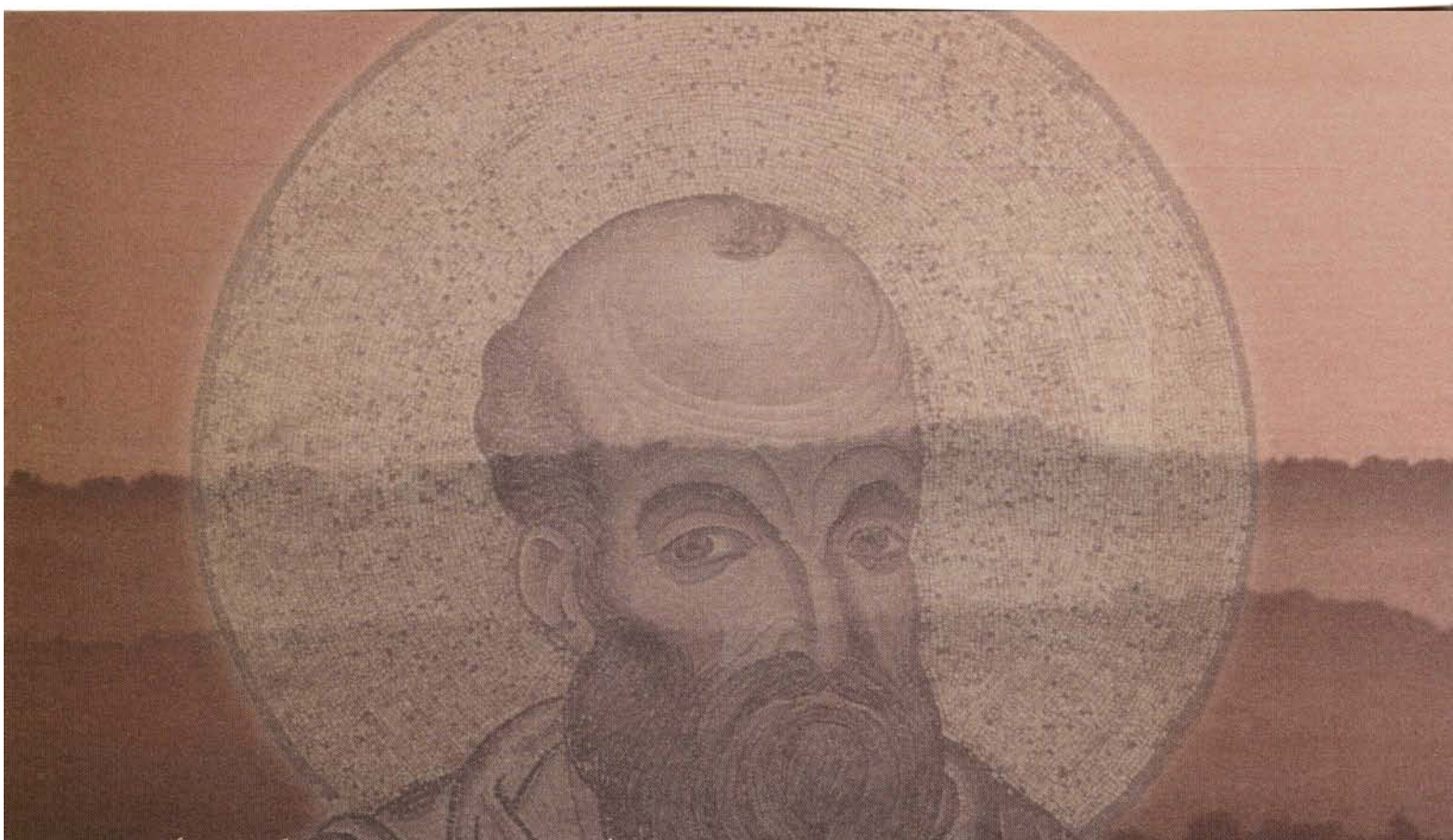

(رج روم ١١:١؛ ١ كو ١١:٢٢)، فخور بحفظ ذويه – وهو من بعدهم – للشريعة، كما نقرأ في فيل ٣:٤ب-٦ : «فأنا محتون في اليوم الثامن»؛ ويضيف : «إني من ذرية إسرائيل»، «من سبط بنيامين»، «عبراني ابن عبراني»، «فريسي». إنّ في ٢ كو ١١:٢٢، وإنْ في فيل ٣:٥، تدل الصفة «عبراني» على يهودي من فلسطين يتكلم اللغة المقدسة أو الآرامية[٣]، أو أيضاً على يهودي من الشتات على ارتباط بالوطن الأم. لا يستعمل بولس إذاً كلمات مترادفة، بل يتدرج من الأكثر اختصاصاً باتجاه ما هو أوسع.

– فرّيسيّ

أكثر من ذلك، يقول بولس بأنّه «فرّيسيّ» (فيل ٣:٥؛ أيضاً أع ٢٣:٦؛ ٢٦:٥)، مشيراً بذلك إلى المرحلة التي درس فيها عند قدميّ معلّم فرّيسيّ – شبه أكيد في أورشليم، كون الفرّيسيّين لم يكونوا منتشرين خارج حدود اليهوديّة (أنظر، مثلاً، أع ٢٢:٣). لم يكن الفرّيسيّون فريقاً غير متميّز في ذاك الزمان، لكنّ ميزة مشتركة تبدو أنّها كانت همّهم «للدقّة أو التحديد أو الضبط»[٤] (ακριβεια) في تفسير الشريعة والحفاظ عليها؛ في ما يتعلّق بهذا الأمر، يوسيفوس[٥] وأعمال الرسل (٢٢:٣؛ ٢٦:٥) متّفقان، والتأكيد الذي باستطاعتنا أن نستلّه من الأناجيل الإزائيّة يتوافق معهما (مر ٢:٢٣-٣:٥؛ ٧:١-١٣).

– غيور

هناك كلمة أخرى تصف بالتأكيد همّاً فرّيسيّاً مميّزاً (حتى ولو لم يكن مُطلقاً) وتكرّساً للحفاظ على الشريعة، ألا وهي «الغيرة»[٦]، التي نسبها بولس إلى ذاته قبل ارتداده (فيل ٣:٦؛ أيضاً أع ٢٢:٣)، كما أيضاً إلى بني قومه اليهود (أنظر ١٠:٢). في ما بين بني قومه الفريسيّين، يبدو بولس أنّه كان بنوع خاص «غيوراً على تقاليد الآباء» (غل ١:١٤)، وقد رأى، بالتأكيد، في اضطهاد الكنيسة الناشئة عملاً لا بدّ منه، انطلاقاً من هذه الغيرة بالذات (فيل ٣:٦).

– مُلِمٌّ بالكتب المقدسة

من دون شك، إنّ التدريب الفرّيسيّ لبولس هو مصدر امتلاكه القوي للكتاب المقدّس، ليس فقط التوراة، بل أيضاً الأنبياء والكتب،

٣– أنظر سي – مدخل ٢٢، حيث تُستعمل كلمة Εβραστι للدلالة على «اللغة العبريّة».

٤– رج . M. Hengel, *Il Paolo precristiano* (Tübingen 1991; trad. ital.: Paideia, Brescia 1992) 111; 116, n. 10: ακριβεια significa "those who specify".

٥– Josephus, *War* 1.110; 2.162; *Ant.* 17.41; *Life* 191.

٦– منذ زمن المكابيين وحتّى العام ٧٠ ب.م.، كانت الغيرة على الشريعة ظاهرةً نموذجيّة في فلسطين. أنظر غل ١٤:١٧، حيث يوصف أعداء بولس في غلاطية بأنّهم «غيورون»، كانوا يحاولون إقناع المرتدين الجدد إلى المسيحيّة في مقاطعة غلاطية بالتزام حياة خاضعة لليهوديّة؛ يبدو أنّ هناك ارتباطاً مباشراً بين هؤلاء الأعداء وبين الغيورين، حسب ما يعتقد. أنظر:

R. Jewett, "The Agitators and the Galatian Congregation", *NTS* 17 (1970) 198-212.
M. Hengel, *Il Paolo precristiano* (Tübingen 1991; trad. ital. : Paideia, Brescia 1992) 113.
E. Lohse, *Le milieu du NT* (Paris: Cerf, 1973) 101.

وهذا ما يبان من استعماله كثيراً للنصوص البيبلية في رسالته. يُظهر بولس أيضاً معرفةً للكتب اليهوديّة التي كانت رائجة في الشتات، دون أن يكون لها وضعُ «كتاب» (خاصّة كتاب حكمة سليمان). إضافةً إلى ذلك، إنّ مصدر مهارة بولس كمفسّر هو، من دون شك، تَدَرُّبُهُ كفرّيسيّ، وهذا ما يتجلّى في مقاطع مثل روم ٤–٥.

إنّ النقطة الأساسيّة، من أجل فهمنا للرسالة، هي إذاً خلفيّته الفرّيسيّة واليهوديّة التي أصبحت وبقيت جزءاً كاملاً من شخصيّته. إنّ تحديد هوّيته كيهودي واهتمامه بميراث شعبه يؤمّنان ناحية من الحوار الذي يتواصل عبر كل الرسالة.

ب - ثقافته اليونانيّة

كان بولس ذا كفاءة عالية في اليونانيّة، حتى ولو لم يكن أسلوبه الأكثر أناقة، ويستعمل كِلا الأسلوبَين، النقدي (diatribe) المُستَعمل كثيراً في المدارس الفلسفيّة، كما أيضاً الأفكار الرواقيّة (أنظر مثلاً ١:٢٨). فتكون لديه هكذا بالتالي تربية يونانيّة هامّة حصل عليها في طرسوس، علماً أنّه ينبغي علينا أن نأخذ بعين الاعتبار شهادة يوسيفوس بأنّ يونانيّته المحكيّة لم تكن جيّدة، «كون شعبنا لا يُحبّذ أولئك الأشخاص الذين تمكّنوا من ألسن أمم عديدة، أو الذين يزيّنون أسلوبهم بالأقوال المأثورة... بل يَعتبِرون حكماءَ فقط أولئك الذين يمتلكون معرفة دقيقة للشريعة، والذين يستطيعون أن يفسّروا معنى الكتب المقدّسة»[٧].

لا ينبغي أن نستنتج أنّ هذين العنصرين المتعلّقين ببولس (أي عبراني ويوناني) كانا في صراع عميق؛ فلقد كان اليهود في الشتات غالباً ذوي اعتبار عالٍ في المدن التي كانوا قد استقرّوا فيها، كما كانت رغبتهم الشديدة في الحفاظ على هويّتهم الإتنيّة محترمة (مع ترتيبات خاصّة كان يُسمح بها في ما يتعلّق بجمع ضريبة الهيكل ونقلها إلى أورشليم كلّ سنة). هكذا كان تقريباً ممكناً ليهوديٍّ في الشتات أن يكون مواطناً رومانيّاً (كما كان الحال بالنسبة إلى بولس، استناداً إلى أع ٢٢:٢٥)، دون الانقطاع عن الافتخار بقوميّته وبميراثه، كون المواطنيّة الرومانيّة مسألةَ تسهيل حياة أكثر منها تحديد هويّة. في كلّ الأحوال ينبغي أن يكون هذان العنصران (أي يهودي ذو لسان يوناني) حاضرَين نصب العينين لدى قراءة ما يعنيه بولس بكلمة دَين تُجاه «اليونان والبربر معاً»، وما يعنيه بالرسالة «نحو اليهود أوّلاً، وأيضاً نحو اليونانيّين» (١:١٤ و١٦).

٣ - العلاقة مع أورشليم[٨]

العنصر الثالث في قصّة بولس الشخصيّة، وهي ذات أهميّة بالنسبة إلى معالجة الرسالة، هو كون عمل بولس الرسولي قد أثار معارضة بني قومه اليهود، بمن فيهم، على الأقل، المرتدّين إلى المسيحيّة. أمّا متى ابتدأت هذه المعارضة والمنحى الذي أخذته، فليسا موضوعاً نحتاج إلى أن نعالجه هنا. يكفي أن نقول أنّه بإمكاننا أن نقسم عمل بولس الرسوليّ إلى مرحلتين، انطلاقاً من علاقته مع أورشليم ومع الكنيسة الأم هناك.

المرحلة الأولى كانت عندما نظر بولس – من المحتمل كمرسل لكنيسة أنطاكية – إلى أورشليم كسلطة أولى لعمله الرسوليّ الخاص. هذه المرحلة مطبوعة بدرجة من الخضوع يشير إليه بولس في غل ١–٢ (نتبيّنه خاصّة من خلال التعابير المستعملة في ١:١٦؛ ٢:٢ و٣ و٦ و١٠). ذروة هذه المرحلة كان مجمع أورشليم حيث نجح في كسب دعم «الرسل الأعمدة» في أورشليم لحَمْل الانجيل إلى الأمم، دون فرض الختانة على هذه الأخيرة (غل ٢:٣ و٦–٩). ولكن قد يبدو، فوراً بعد ذلك، أنّ هذه العلاقة الايجابيّة من العمل الرسولي قد اصطدمت بحادثة أنطاكية (غل ٢:١١–١٤). لم تكن المسألة هناك تتعلّق بالمسيحيّين الذين من أصل وثني، لأن يُختنوا، بل بالمسيحيّين الذين من أصل يهودي الذين كانوا يشاؤون أن يحتفظوا بهويّتهم اليهوديّة من خلال مواصلتهم الحفاظ على الشرائع المفروضة على شعب العهد، خاصّة في ما يتعلّق بشرائع الأطعمة التي كانت علامة فارقة لليهود بمجملهم (رج ١٤:٢). بالنسبة إلى بطرس وبرنابا والمسيحيّين اليهود الآخَرين، كان الحفاظ على الهويّة اليهوديّة وعلى الايمان بالعهد مسألة مبدأ؛ هكذا، لم تكن «أعمال الشريعة» في تعارض مع الايمان بالمسيح (غل ٢:١٦؛ رج روم ٣:٢٠). أمّا بالنسبة إلى بولس، فإنّ مبدأ الايمان بالمسيح ينبغي أن يؤخذ بطريقة جذريّة عميقة، جاعلاً الممارسات اليهوديّة التمييزيّة نسبيّة وجانبيّة؛ ليس فقط الختانة، بل أمور أخرى، مثل «أعمال الشريعة»، كانت على تناقض مع الايمان بالمسيح، كونها تُضيف عمليّاً متطلّبات أخرى كجزء من مجمل المعطيات في قبول الأمم للانجيل.

لا حاجة لنا إلى الذهاب بعيداً في تفاصيل أخرى، بالرغم من أنّه من المهمّ لفت الانتباه إلى أهميّة فهم الرسالة إلى الغلاطيّين كما يجب، إذا كنا نبغي أن نفهم الرسالة إلى الرومانيّين أيضاً. يكفي أن نلاحظ أنّ بولس قد فقد موضوع الجدل في أنطاكية، وأنّه بالنتيجة كان عليه أن يفكّ ارتباطاته القديمة مع أنطاكية (وبرنابا) وأورشليم، ليصبح ذات

٧- Josephus, *Ant.* 20. 264.

٨- Gaston L., "Paul and Jerusalem", in *From Jesus to Paul,* Fs F. W. Beare, ed. P. Richardson and J. C. Hurd (Waterloo, Ontario: Wilfrid Laurier University, 1984) 61-72.

قدر كبير وأكثر استقلاليّة كمرسل، جاعلاً بالمقابل قاعدته في كورنتس وأفسس (أع ١٨:١١؛ ١٩:٨-١٠). إنّ التبديل في الموقف والعلاقة مع أورشليم خاصّة هو بارز بوضوح من خلال اللّغة ذات المسافة التي يستعملها تجاه أورشليم في الوقت الذي فيه كتب الرسالة إلى أهل غلاطية (خاصّة ٢:٦- «أولئك المعروف أنّهم أعمدة» - ما كانوه في الماضي هوالآن موضوع عدم اكتراث بالنسبة إليّ»...). في الواقع، إنّ العلاقة بين بولس والكنيسة الأم تبدو وكأنّها أصبحت متوتّرة. إنّ الجدال في مقاطع مثل غل ١:٦-٩؛ ٢:٥-١٢؛ ٢ كو ١١:٤؛ ١٢-١٥؛ وفيل ٣:٢، كان بالتأكيد ضدّ مبشّرين آخرين و«رسل المسيح»، الذين كانوا تقريباً وبدون شك مرسلين مسيحيّين من أصل يهودي من فلسطين، قلقين على أن يضمنوا أنّ المؤمنين الجدد بالمسيح يسوع قد سلكوا كامل الطريق ليصبحوا أعضاءً كاملين في شعب اللّه (عبر قبولهم الختانة وخضوعهم لأمور أخرى مثل «أعمال الشريعة»). هذه المقاطع الجدليّة هي من بين الكتابات الأشرس في النقاش ما بين المسيحيّين. من جهته يُشدّد بولس على أنّ الاتّفاق في غل ٢:٩ ينبغي أن يُحافظ عليه، وأنّه على كلّ رسول أن يلتزم بمهمّته وإطار عمله (٢ كو ١٠:١٣-١٦)؛ من هنا مقاومته الشرسة لتجاوز مجالات عمله. لكنّه كان أيضاً شديد الاهتمام ودون مهابة بالحفاظ على علاقة إيجابيّة مع أورشليم، أو على الأقلّ على علاقة إيجابيّة بين الكنائس التي كان قد أسّسها والكنيسة الأم في أورشليم. بالتالي كانت أولويّته الكبيرة الثانية في المرحلة السابقة لكتابته الرسالة إلى الرومانيّين أن يجمع المساعدات من الكنائس التي كان قد أسّسها وأن يحمل ذلك إلى أورشليم كعلامة تضامن لطيفة مع اليهود ببركات المسيح يسوع وبأمور ماديّة أيضاً (أنظر ١٥:٢٥).

٤ - الارتداد المدوّي

ابتدأت الناحية الثانية من الحوار مع ارتداد بولس، الذي من المحتمل أن يكون قد حصل في بداية الثلاثينيات (أع ٩:٢٢-٢٦). أساسيّة هنا هي قناعة بولس أنّه، في لقائه مع المسيح القائم من الموت، قد صار معيّناً من اللّه لأن يحمل إنجيل ابنه إلى الأمم (١:١ و٥؛ غل ١:١٥-١٦). في الواقع، كما يُلاحَظُ في أغلب الأحيان، لا يتكلّم بولس إطلاقاً على لقائه مع المسيح كارتداد، لكن فقط كدعوة وإرسال. ليس واضحاً بالتمام متى تملّكته هذه القناعة، ولكن، بالتأكيد، أقلّه منذ مجمع أورشليم وما بعد، تمّ الاعتراف بشكل واسع برسالته نحو الأمم (غل ٢:٩)، كما أنّه هو نفسه لم يكن لديه تردّد بأن يدعو نفسه «رسول الأمم» (١١:١٣). نقطة الاهتمام هي أنّ بعثته الرسوليّة أصبحت بوضوح العنصر الأهمّ الذي هيمن على مُجمل نشاطه الانجيلي خلال العشرة إلى الخمس عشرة سنة الأخيرة من حياته. إنّ طبيعة الاستحواذ الكلّي لهذا الدافع الانجيلي واضح بما فيه الكفاية انطلاقاً من مقاطع مثل روم ١٥:١٧-٢٠؛ ١ كو ٩:١٦ و١٩-٢٧، ومن المحتمل أنّه كان عنصراً حاسماً في تكوين الرسالة وشكلها. يمكن وصف المسألة كما يلي: من وجهة نظره الخاصّة، كان بولس أوّلاً إنجيليّاً ومرسلاً، وفقط لاحقاً لاهوتيّاً. ومن أجل دقّة أكبر، لم يكن لاهوته مستقلاً عن ذلك، بل بالأحرى خادماً «لرغبته الشديدة» - أن يبشّر الأمم بالمسيح (١:١٣-١٥؛ غل ١:١٦).

بالطبع، منشأ الحوار هو كون هذا الرسول إلى الأمم هو حصراً بولس «العبراني ابن العبرانيين» و«الفرّيسي الغيور» - المرتدّ الآن، ولكنّه الذي ما زال يعيش العديد من اهتماماته السابقة. إنّ الايحاء بأنّ بولس، في ارتداده، قد تخلّى كليّاً عن كلّ ما كان يشكّل هويّته السابقة، وعمل وثبة إلى نموذج ديني مختلف تماماً هو غير ضروريّ وغير معلّل.

ليس جدال بولس مع نظام غريب، بل مع ذاته هو، ومع ماضيه الخاص: إنّ لحمة إيمانه بالمسيح تتداخل مع ما هو مخفيّ من يهوديّته. هكذا فقط نستطيع أن نفهم كرب بولس في مقاطع مثل روم ٧:٢١-٢٤؛ ٩:١-٣؛ ١٠:١؛ ١١:١-٢. «بقبول بولس يسوعَ اليهودي على أنّه المسيح، لم يفكّر بتعابير يعني بها الانتقال إلى ديانة جديدة، بل على أنّه وجد المفهوم والتعبير النهائيّين للتقليد اليهودي الذي وُلد فيه هو شخصيّاً. من المحتمل أنّه لم يفكّر أنّه انقطع عن أن يكون يهوديّاً (روم ٩:٣-١١:١)، أو أنّه دشّن ديانة جديدة»[٩].

٥ - خلفيات فاعلة!

إنّ إعطاء هذه الخلفيّة قيمتها هو جوهري لفهم رسالة بولس إلى أهل روما. تأتي هذه الرسالة في ما ينظر بولس إليه أنّه نهاية مرحلة رئيسيّة من عمله (١٥:١٩ و٢٣)، مرحلة مطبوعة ومشوّهة إلى حدّ كبير بتلك العداوة بَيْنَهُ وبين لفيف كبير من المسيحيّين اليهود الذين أصلهم من أورشليم. قد تكون الرحلة إلى أورشليم بالنسبة إلى بولس من أجل تسليم المساعدات ثمرة وختم نجاحه معاً بكسبه هذا العدد الوفير من الأمم إلى الإيمان، لا بل أيضاً بحفاظه على وحدة مجمل الحركة المسيحيّة. إنّ آمال بولس ومخاوفه حول هذا الموضوع هي موصوفة بوضوح في عبارات روم ١٥: أن تكون خدمته بكسبه هذا العدد الوفير من الأمم مقبولةً لدى اللّه (١٥:١٦)، وأنّ دليل العضويّة أن يكون مقبولاً لدى قدّيسي أورشليم (١٥:٣١)؛ ولكن، بالتأكيد، هو متخوّف أكثر في ما يتعلّق بهؤلاء أكثر منه بأولئك. بهذا الروح الذي يمتزج فيه الرجاء والخوف، يكتب بولس رسالته إلى أهل روما.

٩- W. D. Davies, "Paul and the People of Israel", *NTS 24* (1977-78) 20.